نبوة النساء وولد يزن

للعالم المحقق والاستاذ الجليل

الشيخ مصطفى عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب

لا نعرف خلافا فى جواز الولاية وما يتبعها من الكرامة والعرفان للنساء ، انما حصل الخلاف فى نبوة النساء . ويقول ابن حزم : هذا فصل لا نعلمه ، حدث النزاع فيه الا عندنا بقرطبة وفى زماننا . وابن حزم ولد سنة ٣٨٤هـ وتوفي سنة ٤٥٦ هـ

فان طائفة ذهبت الى إبطال كون النبوة فى النساء جملة و بدعت من قال ذلك ، وذهبت طائفة الى القول بأنه قد كانت في النساء نبوة ، وذهبت طائفة الى التوقف فى ذلك .

وكلام ابن حزم صريح فى أنه لا نزاع فى عدم حصول رسالة للنساء بدليل قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى اليهم » . ولم يدع أحد أن الله تعالى أرسل امرأة وانما الكلام فى النبوة .

والفرق بين النبوة والرسالة أن النبوة مأخوذة من الانباء وهو الاعلام فمن أوحى اليه الله علماً بما يكون قبل أن يكون أو أمراً ما مع يقينه يقينا ضروريا بصحة ما أوحى اليه كعلمه بما أدرك بحواسه و بديهة عقله فهو نبي ، وذلك يكون بواسطة الملك .

أما الرسول فهو من أوحى اليه بدين يتبعه و يبلغه إلى الناس ، وقد جاء القرآن بأن الله عز وجل أرسل ملائكة إلى نساء فأخبروهن بوحى حق من الله تعالى ، فبشروا أم اسحاق باسحاق ، وقد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام فخاطبها وقال لها : « انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » ، ووجدنا أم موسى عليهما السلام قد أوحى الله اليها بالقاء ولدها فى اليم وأعلمها أنه سيرده اليها و يجعله نبيا مرسلا ، و يدرك كل ذي تمييز صحيح أنها لو لم تكن واثقة بنبوة الله لها لكانت بالقائها ولدها فى اليم برؤيا تراها أو بما يقع فى نفسها في غاية الجنون .

وتبين من هذا البحث أن المسلمين لم يتنازعوا فى جواز النبوة والولاية للنساء ، اذ لا مانع من ذلك شرعاً ولا عقلا ، وقد اتفقوا على عدم وقوع الرسالة للنساء كما اتفقوا على وقوع الولاية لهن ، واختلفوا فى أمر وقوع النبوة على الوجه الذي بيناه ، وفى هذا دليل على أن

مجال الوحى والالهام يستوى النساء فيه والرجال ، فلا عائق يعوق المرأة عن أن تسمو بروحها إلي أقصى غايات السمو المقدورة للبشر ، بأن تصل الى مرتبة العرفان والولاية وتشهد من جلال حضرة الربوبية مالا يشهده سائر البشر .

وقد بلغت نساء هـذه الدرجة الرفيعة فى عصور النهضة والرقي منـذ نشأة التصوف الاسلامى ، وترجم الشعرانى في كتاب «الطبقات» لاربعمائة وست وثلاثين من الصوفية الاخيار ، بينهن ست عشر امرأة ، كلهن من الطراز الاول بين أهل التصوف من أمثال معاذة العدوية ، ورابعة العدوية ، والسيدة عائشة بنت جعفر الصادق ، والسيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد . وهو لم يستوعب الصوفيات من النساء ، بل اقتصر على جماعة منهن وجعل عنوان الفصل المخصص بالنساء « فصل فى ذكر جماعة من عباد النساء رضى الله عنهن » .

ومايكون لأحد أن يزعم أن فى الاسلام نزوعاً الى الغض من الجانب الروحى للمرأة بعـد الذى بيناه من استعدادها لمراتب الصوفية العليا التى تكشف فيها حجب الغيوب وتفيض على صاحبها الكرامات .

ومافى أحكام الشرع الاسلامى من وجوه التفرقة أحيانا بين المرأة والرجل يرجع الي أمور مادية أومتصلة بالمـادة ، كما فى التفاوت فى الارث والتفاوت فى الشهادة لا يبعد عن هذا النوع ، فان ضعف الذاكرة المعلل به نقص شهادتها ليس حيفا بكمالها الروحى ولا باستعدادها للسمو الديني .

وقد ناقش ابن حزم فى كتابه «الفصل» أراء من يفضلون الرجال على النساء ـ مناقشة تدل على أن فـكرة التساوى فى الفضل بين النساء والرجال كانت من الافـكار المؤيدة بين علماء المسلمين ، وكان لها أنصار من طراز الامام ابن حزم الظاهرى : « قال أبو محمد وقد قال قائل ممن يخالفنا فى هذا : قال الله عزوجل « وليس الذكر كالانثي» فقلنا وبالله التوفيق : فاذن انت عند نفسك أفضـل من مريم وعائشة وفاطمة لأنك ذكر وهؤلاء إناث ، فان قال هذا ألحق بالنوكي وكفر . فان سأل عن معنى الآية قيل له : الآية على ظاهرها ولا شك فى أن الذكر ليس كالانثى لانه لو كان كالانثى لـكان أنثى ، والأنثى أيضا ليست كالذكر لأن هذه أنثى وهذا ذكر ، وليس هذا من الفضل فى شيء البتة ، وكذلك الحمرة غير الخضرة والخضرة ليست كالحمرة ، وليس هذا من باب الفضل ، فان اعترض معترض بقول الله تعالى «وللرجال عليهن درجة » قيل له : انما هذا فى حقوق الازواج على الزوجات

ومن أراد حمل هذه الآية على ظاهرها يلزمه أن يكون كل يهودي وكل مجوسي وكل فاسق من الرجال أفضل من أم موسى وأم عيسى وأم اسحق عليهم السلام ومن نساء النبي صلى الله عليه وسلم و بناته ، وهذا كفر ممن قاله باجماع الأمة ، وكذلك قوله تعالى : « أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين » انما ذلك في تقصيرهن في الاغلب عن الحاجة لقلة در بتهن وليس في هذا ماسخط من الفضل عن ذوات الفضل منهن . . . فان شغب مشغب بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « مارأيت من ناقصات عقل ودين أسلب للب الرجل الحازم من إحداكن » قلنا له و بالله التوفيق : إن حملت هذا الحديث على ظاهره ، فيلزمك أن تقول انك أتم عقلا ودينا من مريم وأم موسى وأم إسحق ومن عائشة وفاطمة ، فان تمادى على هذا سقط الكلام معه ولم يبعد عن الكفر . وان قال لا ، سقط اعتراضه واعترف بأن من الرجال من هو أنقص دينا وعقلا من كثير من النساء ، فان سأل عن معني هذا الحديث قيل له قد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه ذلك النقص وهو كون شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل ، وكونها إذا حاضت لا تصلي ولا تصوم ، وليس هذا بموجب نقصان الفضل ولا نقصان الدين أو العقل في غير هذين الوجهين فقط ، اذ بالضرورة ندري أن في النساء من هن أفضل من كثير من الرجال وأتم دينا وعقلا في غير الوجوه التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وهو عليه السلام لا يقول الا حقا فصح يقينا انه انما عبر عليه السلام ماقد بينه في الحديث نفسه من الشهادة والحيض فقط ، وليس ذلك مما ينقص الفضل ، فقد علمنا أن أبا بكر وعمر وعليا لو شهدوا زنى لم يحكم بشهادتهم ولو شهد به أربعة منا عدول في الظاهر حكم بشهادتهم ، وليس ذلك بموجب أننا أفضل من هؤلاء المذكورين ، وكذلك القول في شهادة النساء فليست الشهادة من باب التفاضل في ورد ولاصدر ، لكن نقف فيها عندماحده النص فقط ، ولا شك عند كل مسلم في أن صواحبه من نسائه و بناته عليهم السلام كخديجة وعائشة وفاطمة وأم سلمة أفضل دينا ومنزلة عند الله تعالى من كل تابع أتى بعدهن ، ومن كل رجل يأتي في هذه الأمة الى يوم القيامة ، فبطل الاعتراض بالحديث المذكور . وصح أنه على ما فسرناه و بيناه والحمد لله رب العالمين »

« قال أبو محمد : فان اعترض معترض بقول النبي صلى الله عليه وسلم « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم بنت عمران وامرأة فرعون » فان هذا الكمال انما هو الرسالة والنبوة التي انفرد بها الرجال وشاركهم بعض النساء في النبوة وقد يتفاضلون أيضا فيها فيكون بعض الانبياء أكمل من بعض و يكون بعض الرسل أكمل من بعض ، قال الله عز

وجل : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات » فانما ذكر في هذا الخبر من بلغ غاية الكمال في طبقته ولم يتقدمه منهم أحد وبالله تعالى التوفيق ، فان اعترض معترض بقوله عليه السلام : « لا يفلح قوم أسندوا أمرهم الى امرأة » فلا حجة له في ذلك لانه ليس امتناع الولاية فيهن بموجب لهن نقص الفضل . فقد علمنا أن ابن مسعود وبلالا وزيد بن حارثة رضي الله عنهم لم يكن لهم حظ في الخلافة وليس بموجب أن يكون الحسن وابن الزبير ومعاوية أفضل منهم والخلافة جائزة لهؤلاء غير جائزة لاولئك ومنهم في الفضل مالا يجهله المسلم » .

* * *

مبنى التصوف كما يتبين مما أسلفنا ، على الايمان والصدق والاخلاص ، فهو العلم الذى يصور المثل الخلقى الاسلامى الأعلى : سئل سمنون عن التصوف فقال : أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء ، وقال بشر لسرى رحمهما الله : ان الله خلقك حرا فكن كما خلقك لا ترائى أهلك فى الحضر ولا رفقتك في السفر ، اعمل لله ودع الناس عنك . وقال الجنيد رحمه الله : آخر مقام العارف الحرية .

واذا كان الصوفية هم بناة المثل الاخلاقى الاسلامى الأعلى ، فان للمرأة حظا غير منقوص فى تشييد هذا الهيكل العظيم .

وإنا لنجد فى كتب التصوف والاخلاق ذكرا لمتصوفات سيرتهن شاهد ومثل يحتذى ، قال الجاحظ فى كتاب الحيوان : « والناسكات المتزهدات من النساء المذكورات فى الزهد والرئاسة من نساء الجماعة : أم الدرداء ومعاذة العدوية ورابعة القيسية » .

ومن نساء الخوارج السجا وحمادة الصفورية وغزالة الشيبانية ، قتلن جميعا وصلبت السجا وحمادة ، وقتل خالد بن عتاب غزالة ، وكانت امرأة صالح بن نوح .

ومن نساء الغالية الميلاء وحميدة وليلى الناعظية . (١)

ولسنا نعرف مؤلفات في التصوف للنساء ولكننا نعرف من آثارهن وأشعارهن وأخبارهن ما يقوم مقام الكتب المدونة ، ويدل على ما لبعضهن من منزلة الامامة كرابعة العدوية التى عرضنا لسيرتها سابقا (٢) .

مصطفى عبد الرزاق

---

(١) راجع كتاب الحيوان ج ٥ ص ١٧٠

(٢) راجع مجلة (المعرفة) ج ١ ص ١٢